جامعة عبد الرحمن ميرة
كلية الآداب والعلوم الانسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

السنة الأولى، المجموعة 01

محاضرة رقم 01 **البلاغة العربية** **الأستاذة: عزي نعيمة**

تمهيد:

بدأ اهتمام العرب بالبيان والفصاحة، وبالبلاغة باعتبارها فنا يقوم عليه الأدب الرفيع، منذ زمن قديم، حيث لم يكن هذا الأمر مقصورا على جهود العرب الذين عاشوا بعد قيام الدولة الإسلامية كما قد يتبادر إلى أذهان بعضهم. ويمكننا أن نلاحظ احتفال عرب الجاهلية بالبلاغة في صور مختلفة ومتباينة، منها، على سبيل المثال، عقدهم للأسواق الأدبية في عكاظ، وغيره من أماكن مشهورة تجمعهم. فقد كانوا يتناشدون الأشعار، ويتسابقون في ذلك الأمر بأن يحتكموا إلى ذوي الخبرة والدُّربة منهم، وذوي القدرة على تمييز جيد الشعر من رديئه. ومن أشهر أولئك النقاد **النابغة الذبياني** الذي كانت تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ فيأتيه الشعراء من كل أنحاء جزيرة العرب بغية عرض أشعارهم عليه ليقرر هو في شأنها فيقدم هذا الشاعر ويؤخر ذاك. ولهذا السبب فقد كان الشاعر الجاهلي يمنح قصيدته قدراً عالياً من العناية، ويهتم اهتماما كبيرا بتجويد أسلوبه فيها وتحسينه ليصل بها إلى المكانة أو الدرجة التي تمكنه من نيل رضا النابغة أو الظفر بمدحه وتقريظه لأن في ذلك شرفاً له ولقبيلته على حد سواء. وقد تطور الأمر بعد ذلك بأن أصبح الشاعر يحتل مكانة خاصة في مجتمعه، ويجد من الاحترام والتقدير ما لا ينعم به غيره من أبناء القبيلة التي ينتمي إليها. ولم يكن غريبا، وقتئذ، أن تعقد القبيلة مظاهر الفرح والابتهاج كلما خرج من بين أبنائها شاعر؛ ذلك لأن الشاعر هو الشخص المنوط به أمر الدفاع عن القبيلة في مجابهة الخصوم والأعداء، وهو الرجل الذي تعتمد عليه القبيلة ليرفع من شأنها بين سائر القبائل إما بتعداد مآثرها وحصر مناقبها، وإما بذكر أيامها التي انتصرت فيها على منافسيها.

ومن صور اهتمام عرب الجاهلية بالبيان والبلاغة أنهم كانوا يمدحون اللسان في أشعارهم. من ذلك قول زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

وكائن ترى من صامت لكل معجب ***** زيادته أو نقصه في التكلّم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ****** فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وطبعيّ أن نرى العرب الذين عاشوا في صدر الإسلام، وفي العصور التالية له يفعلون ما فعله أسلافهم في الميل إلى الكلام الفصيح البين، وفي العمل على إعلاء شأن كل من يظهر منهم نجاحاً أو تفوقاً في هذا الميدان، وطبعيٌّ أيضا أن نراهم ينوهون بكل هذا في كلامهم المنظوم. استمع إلى شاعرهم يقول:

أرى الناس في الأخلاق أهل تخلّق******وأخبارهم شتى فعُرفٌ ومُنكرُ

قريباً تدانيهم إذا ما رأيتهم******ومختلفاً ما بينهم حين تَخبُرُ

فلا تحمدنَّ الدهر ظاهر صفحة******من المرء ما لم تبلُ ما ليس يظهرُ

فما المرءُ إلا الأصغران: لسانه******ومعقوله والجسم خلقٌ مُصوَّرُ

وما الزّينُ في ثوب تراه وإنما******يزينُ الفتى مخبوره حين يُخبرُ

ومن الشعراء الإسلاميين الذين عبروا عن هذه الفكرة كعب بن سعد الغنوى الذي مدح رجلا أديباً بقوله:

حبيب الى الزّوّار غِشيان بيته***جميل المحيا شبَّ وهو أديبُ

إذا ما تراءاه الرّجالُ تحفّظوا***فلم تنطق العوراء وهو قريبُ

وإذا كان مدح اللسان قد وجد حظاً وافراً في شعر العرب الجاهليين والإسلاميين على حد سواء فإن هذا المدح قد عرف طريقه إلى كلامهم المنثور أيضا، فقد وردت في كتب التاريخ والأدب عبارات وأحاديث تمجد اللسان، وترفع من قدر أهل الفصاحة والبيان، من ذلك ما أورده الجاحظ في «البيان والتبيين» أن أعرابياً مدح رجلا برِقة اللسان فقال:«كان والله لسانه أرقَّ من ورقة، وألين من سَرَقة».

السَّرَقُ بالتحريك: شقائق من جيّد الحرير أو أبيضه. ونسب إلى العباس بن عبد المطلب أنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، فيم الجمال؟ قال: في اللسان. وقال رجل لخالد بن صفوان: مالي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار، وتتدارسون الآثار، وتتناشدون الأشعار، وقع عليّ النوم؟ فقال له خالد: لأنك حمار في مسلاخ إنسان. «المسلاخ: الجلد».

ومما ذكره الجاحظ أيضا أنه قد قيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورحب الشِّدق، وبعد الصوت. ومعلوم ان رحابة الشدق تعني سعة الفم، وأن قوة الصوت وبعده لا

يكونان في الرجل إلا إذا كان واثقاً من نفسه، وأن الثقة بالنفس تعتمد، فيما تعتمد، على عمق الفكر والثقافة أو على غزارة العلم والأدب.

ويجدر بنا أن نذكر في هذا المكان أن من العبارات التي تنسب إلى صاحب المنطق «أرسطو» قوله: حدُّ الانسان الحي الناطق المبين.

وزاد من مكانة الشاعر في البيئات العربية المختلفة أنه كان دائم السعي إلى الحط من قدر أعداء قومه إما بهجائهم والخوض في أعراضهم، وإما بذكر مثالبهم ومواطن ضعفهم وقصورهم. وتجدر الإشارة إلى القول بأن العرب كانوا يخافون الهجاء، وكانوا يتحاشون الشعراء الذين اشتهروا به أمثال الحطيئة وبشار وغيرهما. يدلنا على ذلك قول شاعرهم في هذا الخصوص:

وجرحُ السيف تدمله فيبرا*****ويبقى الدّهر ما جرح اللسانُ

يتضح لنا مما تقدم أن من عوامل نشأة البلاغة العربية أن العرب جبلوا على حب الفصاحة والبيان واللسن وأنهم فتنوا بتذوق الأسلوب ونقده، فكانت لهم في الجاهلية آراء نقدية كانت هي- بصرف النظر عن طبيعتها وحجمها- الأساس الأول الذي اعتمد عليه النقد الأدبي عند العرب. وبدهي أن يكون النقد الأدبي الأساس لعلم البلاغة الذي تبلورت أصوله واتضحت معالمه بعد ذلك.

تعريف البلاغة:

لغة:

تعودُ كلمة البلاغة إلى المادّة اللّغويّة (بَلُغ)، فبَلُغَ الشّيء: أي وصل وانتهى إليه، وشخصٌ بليغ: أي فصيح اللّسان، وحَسَنُ البيان، والبلاغة في اللغة : هي الوصول والانتهاء . يقال بلغ فلان مراده. إذا وصل إليه . ومبلغ الشيء منتهاه. وبلغ الرجل بلاغة فهو بليغ , إذا أحسن التعبير عمّا في نفسه والبلاغة تقع صفة للكلام والمتكلم من باب التوسّع فقط، وتعرّف البلاغة في المعجم الوسيط بأنها حسن البيان وقوّة التأثير.

قال أبو هلال العسكري: البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها, وبلّغتها غيري. ومبلغ الشيء: منتهاه. والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته؛ فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه.

وتقع البلاغة في الاصطلاح وصفًا للكلام فقط، ولا توصف «الكلمة» بالبلاغة؛ لقصورها عن الوصول بالمتكلم إلى غرضه.

البلاغة في الاصطلاح:

اهتمّ العربُ كثيراً بهذا العلم، وأولوه الاهتمام والرّعاية حتى وصل إلينا اليومَ على صورته الناضجة.ولو تتبعْنا تحليلَ هذا المصطلح عند بعض علماء العربيّة لوجدنا الآتي:

1. **الرّمّاني** : يقول في تقسيم الكلام على ثلاثة مستويات:(فأمّا البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقةً فهو مُعجزٌ وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكنٌ، كبلاغة البلغاء من الناس ،وليست البلاغةُ إفهامَ المعنى،لأنّه قد يفهمُ المعنى متكلمان أحدهما بليغٌ والآخرُ عييّ، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى؛لأنّه قد يتحقق اللفظُ على المعنى وهو غثٌّ مستكره ونافر مُتكلّف، وإنّما البلاغة إيصالُ المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ).

2. **عبد القاهر الجرجاني:**

تنبه عبد القاهر الجرجاني فى كتابه "دلائل الإعجاز" إلى العلاقة الوثيقة بين الألفاظ والمعاني، فرأى أن البلاغة أو الجمال الفني، ليس في الألفاظ والمعاني، ورآها في التراكيب، أو في العلاقة القائمة بين الألفاظ في العبارات، وما ينتج من هذه العلاقات من معان، وقد سمى عبد القاهر هذه العلاقات "النظم، وينطلق من نظريته في النظم التي حاول من خلالها القول إن القرآن معجز بنظمه، والبلاغة عنده هي النظمُ، والنظمُ هو أن تضعَ كلامَك الوضع الذي يقتضيه علمُ النحو، وأن تُعلّقَ الكلمُ بعضُها ببعض، يقول:(واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمتَ علماً لا يعترضه الشكُّ أنْ لا نظمَ في الكلم ولا ترتيب حتّى يُعلقَ بعضُها ببعض،ويبني بعضُها على بعض، وتجعلَ هذه بسببٍ من تلك).

ولقد استعرض الجاحظ مفهوم البلاغة العربية، عن طريق إيراده تعريفات نقدية للبلاغة؛ كتعريف ابن الأعرابي القائل: "البلاغة هي الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل". وتعريف العتّابي الإنسان البليغ بالقول: "هو كل من أفهمكَ حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة،"

وتعريف ابن المقفع للبلاغة بأنها "اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخُطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة".

أمّا تعريف الجاحظ للبلاغة، فهو إبلاغ المعنى باللفظ الواضح، يقول: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك". ويربط البلاغة بالفصاحة، فالكلام البليغ هو اللفظ الفصيح، ومقاييس الفصاحة عند الجاحظ، هي القرآن الكريم وكلام الأعراب، ولقد أشار ابن الأثير في كتابه (أدب الكاتب والشّاعر) إلى أنّ الكلام البليغ سُمّي بذلك؛ لِما يحمله من الأوصاف اللّفظيّة، والمعنويّة، فالبلاغة تشمل المعاني لا الألفاظ فقط.

يمكننا أن نفهمَ البلاغة من خلال هذه الأقوال على أنّها الكلامُ القليل الذي يؤدّي معنى كثيراً محتكماً إلى أداءٍ جماليّ متميّز.

ومهما يكن من أمر فإنّ التعريف الذي قدمه القزوينيّ في كتابه (الإيضاح في علوم البلاغة) هو التعريف المشهور والمعتمد عند كل البلاغيين، والقزويني يعرّف البلاغة بأنها: "**مُطابقة الكلام لمُقتضى الحال مع فصاحته**"، فالكلام البليغ: إذاً هو الذي يصوِّره المتكلم بصورة تناسب أحوال المخاطبين.

وحال الخطاب (ويسمى بالمقام) هو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عبارته على صورة مخصوصة دون أخرى.

والمُقْتَضَى (ويُسمَّى الاعتبار المناسب) هو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة.

مثلًا: المدح: حال يدعو لإيراد العبارة على صورة الإطناب.

وذكاء المخاطب: حال يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز.

فكل من المدح والذكاء «حال ومقام»، وكل من الإطناب والإيجاز «مقتضى».

وإيراد الكلام على صورة الإطناب أو الإيجاز «مطابقة للمقتضى».

وليست البلاغة إذًا منحصرة في إيجاد معانٍ جليلة، ولا في اختيار ألفاظ واضحة جزلة، بل هي تتناول مع هذين الأمرين أمرًا ثالثًا «**هو إيجاد أساليب مناسبة للتأليف بين تلك المعاني والألفاظ**» ما يكسبها قوة وجمالًا.

وخلاصة القول أن الأمر الذي يحمل المتكلم على إيراد كلامه في صورة دون أخرى يسمى «حالًا»، وإلقاء الكلام على هذه الصورة التي اقتضاها الحال يُسمى «مقتضى»، والبلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال.

وقد تناول بعض الدارسين المحدثين مفهوم البلاغة من حيث الاصطلاح، فقالوا: " أما البلاغة فهي تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة، لها في النفس أثر خلاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون".

بلاغة المتكلم: هي مَلَكة يقتدرُ بها صاحبها على تأليف كلام بليغ، مطابق لمقتضى الحال، مع فصاحته في أي معنًى قصده.

وتلك غاية لن يصل إليها إلا من أحاط بأساليب العرب، وعرف سنن تخاطبهم في منافراتهم، ومفاخراتهم، ومديحهم، وهجائهم، وشكرهم، واعتذارهم؛ ليلبس لكل حالة لبوسها « ولكل مقام مقال».

البلاغة موضوعاً :

طُرِح هنا السّؤالَ الآتي: هل المتكلّمُ هو البليغُ، أم أنّ كلامُه هو ما يمكن أن يكتسبَ هذه الصّفة؟ بعبارةٍ أخرى: من البليغُ المُرسل أم الرّسالة؟

للإجابة عن هذا السّؤال نستأنسُ برأي أبي هلال العسكريّ الذي يقول: يقال: أبلغتُ في الكلام إذا أتيتُ بالبلاغة فيه، كما تقول: أبرحتُ إذا أتيتُ بالبُرَحَاء وهو الأمرُ الجسيم، والبلاغةُ من صفة الكلام لا من صفة المتكلّم. فلهذا لا يجوز أن يُسمّى اللهُ جلّ وعزّ بأنّه بليغ؛ إذ لا يجوز أن يُوصفَ بصفةٍ كان موضوعُها الكلام، وتسميتنا المتكلّم بأنه بليغ توسُّعٌ، وحقيقته أنّ كلامَه بليغ، كما تقول : فلانٌ رجلٌ مُحكَم، وتعني أنّ أفعاله محكَمة، قال تعالى:(حكمةٌ بالغة) القمر فجعل البلاغة من صفة الحكمة، ولم يجعلها من صفة الحكيم، إلا أنّ كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنّه بليغ كالحقيقة، كما أنها جعلت تسمية المَزَادَة رَاوِية كالحقيقة، وكان الرّاوية حاملَ المَزَادَة وهو البعيرُ وما يجري مجراه).

إذاً البلاغةُ تكون للكلام ولا تكون لمُنشئه إلا توسُّعاً ، ولعلّ ما ساقه أبو هلال من أمثلةٍ تجعلنا نذهبُ معه في هذا الاتجاه، خصوصاً أنّ وجودَ البلاغة مصطلحاً ما كان ليوجدَ لولا وجودُ اللغة والكلام هو الاستعمال الانتقائي للغة . حسبَ اللسانيين . وعليه فإنّ علاقة البلاغة في الأصل هي مع الكلام وليس مع منشئ الكلام.

تجدر الإشارة إلى أنّ للبلاغة عناصرَ ذكرها عبد الرّحمن بن حسن حنبكة الميدانيّ في كتابه (البلاغة العربيّة)، فذكر أنّها تتمثّل في سِتّة عناصر هي: " الأول هو: الحرص على الإتيان بالقواعد النّحويّة والصّرفيّة على أكمل وجه مع حُسن اختيار المُفردات الفصيحة لها، والثّاني هو: الابتعاد عن الخطأ في إيراد المعنى، والثّالث هو: الابتعاد عن أيّ تعقيد لفظيّ أو معنويّ لا يُوصل إلى المعنى المقصود، والرّابع هو: حُسن اختيار المُفردات التي تحمل حِسّاً وجمالاً، والخامسُ هو: انتقاء الجميل من المقاصد والمعاني وترجمتها من خلال ألفاظ تحمل طابعاً جماليّاً، والسّادس الأخير هو: تدعيم الكلام من خلال استخدام المُحسّنات البديعيّة التي تُزيّنه وتجذب المُتلّقي".

أهميّة علم البلاغة:

إنّ أهمية علم البلاغة العربيّة استُنبطت من القرآن الكريم لفهم حلاوة معانيه، ومقاصده، وبيان أسراره، وأحكامه، وأخباره، وتفسير آياته الكريمة ومعرفة ما فيها من براعة وعذوبة في اللفظ والتراكيب البلاغيّة، فهذا العلم يُعتبر الوسيلة المناسبة لمعرفة إعجاز القرآن الكريم، لذلك يؤدي الإغفال عنه إلى عدم إدراك إعجاز النظم القرآنيّ، وبالتالي لا بدَّ من الإلمام بقواعد علم البلاغة التي تجعل الإنسان فصيحًا ومتكلّمًا بلسان بليغ.